الوضوح والغموض وطبيعة الأدب

بقلم عبد الباقى ابراهيم

المدرس بمدرسة فاروق الأول الثانوية

منذ عقدين من السنين أو أقل ، كان الحديث فى موضوع كهذا يبدو غريباً فقد كان الأدب يخلقه الشعراء والكتاب فى ذلك العهد واضحاً ، وما غمض منه كان مستوحشاً غريباً كأنه فى غير بيئته

كان القراء يقبلون على أدب المنفلوطى ما ألف أو ترجم لوضوحه و« بساطته » إقبالاً شديداً ، حتى ندر فى تلاميذ ذلك العهد من لم يقرأ كل ما أخرج المنفلوطى على حين كان حديث القمر مثلا للرافعى لا يجد قبولاً

ولم يكن للشعر إلا مدرسة واحدة هى مدرسة شوقي وحافظ وحفنى وأضرابهم تلك المدرسة التى كانت تؤمن بالوضوح بفطرتها اللهمة .

أما الآن فقد تبدلت الحال كثيراً ، فقد أصبح الغموض فى الأدب مذهباً ورأياً له أنصار يدافعون عنه ويحتجون له ، فإنى أذكر أنى سمعت الدكتور الأديب « زكي أبا شادى » ينتصر له فى أثناء حديث بينى وبينه ، وأحسبه كتب فى ذلك أيضاً ، وأذكر أن أستاذاً كبيراً من أساتذة الأدب فى مصر أشار إلى هذا المذهب فى أثناء درسه إشارة مقرونة بالعطف عليه ، بل قد ذهب إلى أبعد من هذا إذ فضل أبا تمام على البحترى من ناحية ذات صلة قوية بغموض المسلك وخفاء المقصد .

ثم تنظر فى الشعر العصرى فإذا كثير منه لا تكشف عبارته عن قصد ولا تبين عن غرض ، ولقد تقرأ البيت مرة بعد أخرى فإذا هو فى النهاية أشد غموضاً وأكثر خفاء

وقد تكون ممن أدركوا حظاً وافراً من اللغة وممن يستطيعون أن يفهموا فلسفة (كانت) على خفائها وشدة غموضها ، وتعجز مع ذلك عن أن تدرك معنى

بيت من هذا الشعر تدل عليه طبيعة التركيب

من أجل هذا عقدنا هذا البحث لنكشف فيه عن طبيعة الأدب كما نفهمها ثم ننظر أى الأسلوبين أدنى إلى هذه الطبيعة صلة ، وأقرب منها رحما ؛ فإنه يلوح لنا أنه لا شيء يضر الفن أكثر من أن تصرفه عن طبيعته حتى يتناكرا ، وتبعده عن جوهره حتى يتنافرا

وقبل أن ندخل فى صميم بحثنا نرى أن نحدد ما نعنيه بالوضوح والغموض تحديداً دقيقاً

إننى لا أقصد بالوضوح أن يكون المعنى ساذجاً فطريا قد تناوله الأديب من كتب فلم يكلف ذهنه فى الوصول إليه مشقة

ولا أن يكون قد صار مألوفا لكثرة ما تناهبته الأذهان وتواردت عليه الأفهام ، فما هو إلا أن تسمع العبارة حتى يهجم على نفسك ويسبق إلى فهمك

وإنما ظنى به أن يكون التركيب نفسه بكلماته ونظامه يدل عليه ويكشف عنه فلا يضطرنا إلى ضروب من التأويل لا نطمئن إليها ولا نجد البينة عليها من الألفاظ نفسها

ونحن ندخل فى مرتبة الوضوح ، المعاني التى توحى بها الكلمات أو العبارات إيحاء فلا نقف عند الحد الضيق الذى تحدده القواميس للكلمة ، فإن الشاعر أو الكاتب قد يستعمل كلمة يدل بها على ما هو أوسع كثيراً مما لها فى القاموس ، ومن أجل هذا كان فهم الشاعر فهما تاماً ، وقدره حق قدره ، بحاجة إلى الذوق ، وإلى الصلة الروحية التى تجمع بينه وبين الناقد

ولا نقصد بالغموض أن يكون المعنى عميقاً قد سافر إليه الذهن أو تعب فيه الخيال أو ارتفع به مبدعه عن الأفق العادى للأدباء ، فعمق المعنى فى رأينا هو بُعْده وارتفاعه عن أفق الذهن العادى ؛ أما الغموض فهو قصور التركيب نفسه — مع أن النظام يجرى على القانون العربى — عن أن يكشف عما فى النفس دون لَبس . فهما شيئان مختلفان

وكما نرى العمق والغموض مختلفين نرى أن العمق لا يدعو لزاماً إلى الغموض

ولا يضطر إليه حتى لا يكون للأديب مندوحة عنه ، وآية ذلك تظفر بها فى كثير من النثر وفى كثير من الشعر ؛ فكثير من القراء يعرفون أنه قد ترجم إلى النثر العربى آثار نيتشة الفيلسوف الأديب الألمانى فى « مجلة العصور » ولجيتى « آلام فرتر: للزيات » وفاوست :« الدكتور عوض » ولشكسبير: «المقتطف» ولأناتول فرانس : « أناتول فرانس فى مباذله : للأمير شكيب أرسلان »

وما من شك فى سمو أفكار هؤلاء وعمقها ، إذ كان لكل منهم حظ غير يسير من الفلسفة ، وكان لبعضهم نصيب كبير من البحث العلمى الدقيق ، وقد اتسع لمن ترجموا لهم أن يصوغوا أفكارهم فى أساليب بلغت الغاية من الإبانة والوضوح

وفى الشعر نستطيع أن نجد أمثلة كثيرة تجمع بين الوضوح وسمو المعنى وارتفاعه وإن شئت فقل عمقه ، وقد اخترنا هنا من هذه الأمثلة لشاعرين يختلفان عصراً وبيئة ولكنهما يتفقان فى نزعة واحدة ، هى ازدحام الأساليب بالمعانى البعيدة العميقة وهما المتنبى والعقاد

المتنبى يمدح :

إلى سيد لو بشر الله أمة ... بغير نبى بشرتنا به الرسل
رأيت ابن أم الموت لو أن بأسه ... فشا بين أهل الأرض لانقطع النسل

* * *

فكم عين قرن حدقت لنزاله ... فلم تغض إلا والسنان لها كحل
وحالت عطايا كفه دون وعده ... فليس له إنجاز وعد ولا مطل

وله أيضاً :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لمّا أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه ... فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه ... عُبدت فكان العالمون مجوسا

وله أيضاً :

كأن سخاءك الإسلام : تخشى ... إذا ما حلت عاقبةَ ارتداد

كأن الهام فى الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صنعت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا فى الفؤاد

للأستاذ عباس العقاد:

قال من قطعة له بعنوان « أمام قفص الجيبون »

العب الآن وانتظر بعدُ حقبا ترق فى « سلم الرقى » وتعل
كيف لم تصعد السلالم وثبا أيها الصاعد الذى لا يَمَلُّ

* * *

انتظر يا صديق شيئاً فشيئا تطبخ القوت كله بيديكا
غير أنى إخال ما كان شيئاً منه ، أجدى فى الحالتين عليكا

* * *

انتظر يا صديق مليون عام أو ملايين لست والله أدرى
إن تدانيت بعدها من مقامي فقصارى المطاف أن لست تدري

وله بعنوان « صيام الفكر »

دع اليوم زاد الفكر فى صفحاته أنا اليوم عن زادى من الفكر صائم
وقد يهجر العقل الكتاب تديناً كما تهجر القوت الجسوم الطواعم

فى هذه الأمثلة التى يمكنك أن تجد كثيراً من طرازها ، استطاع شاعران أن يخضعا الأسلوب لهما وأن يروضاه رياضة ماهرة للكشف عن معان لا يصل إليها الذهن إلا بعد سمو وتحليق

ويزيدك اقتناعاً بصحة ما ذهبنا إليه أن ترى المعنى الذى ذلل ووطئ لكثرة تداوله يتناوله الشاعر تناولاً غير موفق ، فإذا هو سبيل إلى الغموض وطريق إلى الخفاء. وخذ مثلاً على ذلك قول أبى تمام فى عبد الله بن طاهر :

أهن عوادى يوسف وصواحبه فعزما ، فقد أدرك النجح طالبه

فقد أراد أبو تمام أن يقول « إن النساء هن اللائي صرفن يوسف عن رشده وإذن فلا تثق بهن فى إغرائك بالعدول عن رحيلك إلى عبد الله وامض لطيتك فى إصرار وعزم »

إن المعنى الذى جاء به أبو تمام وهو اتهام النساء فى النصح ليس مبتكراً ولا بعيدا ، فقد جاء فى الحديث « إنكن صواحبات يوسف » والنتيجة التى رتبها عليه كانت فى حاجة إلى حلقة مفقودة من الألفاظ تهدي إليها ، وهو لم يخلق جوا يجعل الذهن يمضى إليها دون التواء كأن يأتى بحوار بينه وبين المرأة كما فعل أبو نواس فى قوله :

تقول التى من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسير

إلى آخر الأبيات المعروفة ، من أجل هذا كان أبو تمام غامضاً فى هذا المعنى القريب التناول، ومن أجل هذا عابه الآمدى وقال له أبو العميثل «لم لا تقول مايفهم!»

ولعلنا بعد ما تقدم نكون قد وفقنا إلى تحديد الوضوح والغموض تحديداً يعيننا في حلقات البحث التالية إن شاء الله

عبد الباقى ابراهيم